

بنية القصيدة في شعر جاراالله الزمخشري؛ دراسة تحليلية

حسن دادخواه طهراني*

خيرية عجرش**

غلامرضا كريمي فرد***

زهرة آذري (الكاتبة المسؤولة)****

الملخص

القصيدة في الأدب العربي منذ العصر الجاهلي لها بنيتها الخاصة وجعل الشعراء والنقاد هذه البنية المحددة قوام أعمالهم. والقصيدة العربية تتشكل من عدة أقسام وكل قسم مقدمة للقسم التالي؛ فالبيت الأول في القصيدة يسمى المطلع وفي معظم الأحيان يأتي بعد المطلع التشبيب (ذكر أيام الشباب) أو النسيب والتخلص (انتقال الشاعر من الغزل الى الغرض الرئيس للقصيدة) ثم الغرض الرئيس (المدح، والفخر، والثناء، ..) والمقطع (الدعاء، وطلب الخلود للشخص الذي نظم الشعر من أجله). وهذه الأقسام غالبا ما التزم بها الشعراء الأقدمون وألزم النقاد بها الشعراء المتأخرين، على أن يعدلوا بينها ولا يخرجوا عليها. يعتبر جاراالله الزمخشري واحدا منهم. إن هذه الدراسة تعالج حياة الزمخشري وأغراضه الشعرية كما تتطرق إلى بنية القصائد والأساليب التي يستخدمها هذا الشاعر في افتتاح قصائده للوصول إلى الغرض المنشود وتحقيق ما كان يأمله ويرجوه في قصيدته، والربط بين ذلك الافتتاح والغرض الذي يهدف إلى تحقيقه وحسن ختامه وأخيرا يدرس المقال القصائد ذوات الموضوع الواحد أو الموضوعات المتعددة مركزا على اتباع الشاعر بنية القصيدة العربية الجاهلية ومحافظة عليها.

الكلمات الدليلية: الزمخشري، البنية، القصيدة، المقدمة، وحدة الموضوع.

*. أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد چمران، أهواز، إيران

** .أستاذة مساعدة في اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد چمران، أهواز، إيران

***. أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد چمران، أهواز، إيران

****. طالبة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد چمران، أهواز، إيران

zohrehazare@yahoo.com

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. هومن ناظميان

تاريخ القبول: ١٣٩٤/٦/٥ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٣/١/١٥ش

المقدمة

يشكل بناء القصيدة دعامة أساسية من دعائم العمل الشعري بفنيته ودقته، ولعله يعكس لنا رؤية الشاعر وطريقة معالجته للقضية المطروحة أمامه، كما أنه يدل في بعض جوانبه على الحياة العقلية والاجتماعية للعصر، ومن المعروف أن النقاد القدامى تحدثوا عن نظام القصيدة العربية القديمة، وقد عرفت القصيدة الجاهلية عندهم ببناء محدد التزم به الشعراء الجاهليون فالأمويون ثم العباسيون ونظموا فيه جلّ أشعارهم وقليلاً ما نرى التخطي من هذا الأسلوب.

جار الله الزمخشري المفسر والعالم الجليل، جمع بين العلم بفروعه والأدب، شعره ونثره. فهو إن يُعرف بكتبه العلمية من أمثال "الكشاف" في التفسير و"المفصل" في النحو وغيرها من الكتب التي طبعت واشتهرت بين الدارسين فبات مجهولاً جانبه الأدبي ولا سيما ما يخص الشعر. وقد كشف التحقيق عن هذا الجانب المظوم من حياة الزمخشري وتتجلى لنا أهميته إذا عرفنا أنّ ديوانه قد ضمّ أكثر من خمسة آلاف بيت صورت حياته ونفسيته وتجاربه وثقافته... وفي هذه الدراسة يقدم الدارسون تعريفاً بالشاعر وحياته تعريفاً موجزاً ويتحدثون عن أغراض شعره مستعينين من ديوانه ويحاولون دراسة تحليلية لبنية قصائده والإجابة عن الأسئلة التالية: ١- فما هي مقدمة القصيدة لديه؟ أهو مقدمة طلبية أم غزلية أو حكمية؟ ٢- هل كانت مقدماته الغزلية ذات طابع صوفي؟ ٣- هل يكون مطلع القصيدة دالاً على ما بنيت عليه؟ وهل أجاد الزمخشري في ختام قصائده؟ ٤- هل يهتم شاعرنا بحسن التخلص في قصائده من المقدمة إلى المضمون اهتماماً رقيقاً؟ ٥- هل ينكر الزمخشري وحدة الموضوع في ديوانه أو أكثر وحدة في قصائده؟

ديوان الزمخشري هو موضوع هذه الدراسة وفي ٦٥٠ صفحة وتم جمعه سنة ٢٠٠١م بواسطة الدكتور عبدالستار ضيف من مخطوطات الديوان في المكاتب في مصر وتركيا و رأى النور سنة ٢٠٠٤م.

الدراسات السابقة

ألفت كتب ومقالات عديدة حول الزمخشري وكتابه «الكشاف» منها:

كتاب فخر خوارزم (١٣٨٨ش) للباحث عليرضا باقر. تناول خلاله حياة الشاعر وآثاره.

كتاب آخر بعنوان «الزمخشري» (١٩٦٦م) للباحث أحمد محمد الحوفى حول حياته وآثاره.

ومقال يحمل عنوان «دور الزمخشري في البلاغة العربية»، هذا المقال منشور سنة (١٣٩٠ش) في «مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها»، تطرق فيها الباحث إلى دراسة علم المعانى والبيان والبديع عند الزمخشري.

ومقال آخر بعنوان «فكرة النظم في تفسير (الكشاف) للزمخشري» (٢٠٠٩م)، للباحثة رضوان باغباني.

وأما فيما يتعلّق بخلفيّة البحث فيمكننا أن نقول إنّ الباحث لم يقف على مقالة فارسيّة أو عربيّة بهذا العنوان إلّا أنّ هناك نجد كتابين حول ديوان شعره وأنّ الباحثين أشار إليه إشارات عابرة:

كتاب جاراالله محمود بن عمر الزمخشري حياته وشعره (١٩٩٤م) للباحث «عبد الستارضيف» ورسالة «على عبدالله عبد عمرو» بعنوان «تحقيق ديوان الزمخشري» (١٩٧٩م).

الزمخشري حياته وشعره

محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ولقبه جاراالله وفخر خوارزم وكنيته أبو القاسم (سيوطي، لاتا: ١٠٦) ولد في قرية زمخشر التابعة لخوارزم في يوم الأربعاء في ٢٧ شهر رجب سنة ٤٦٧ الهجرية القمرية. (زركلي، ١٩٨٠: ٥٥) ولد الزمخشري في عصر حكم ابو الفتح ملك السلاجقة وابن آلب ارسلان وفي هذه الفترة كانت سوق الأدب رائجة بسبب محاولات وزيره نظام الملك الذي كان يحب العلم والأدب وكان يدعم العلماء والأدباء ماديا ومعنويا. (عليرضا، ١٣٨٨ش: ٢٧) الزمخشري تلمذ عند الشيوخ والأساتذة الكبار ومن أشهرهم أبو مضر. وكان يحاول الوصول إلى نظام الملك بمساعدة من أستاذه هذا، ليصل إلى المنزلة التي تليقه. مدح الشاعر معز الدين سنجر - سابع ملك

السلاجقة - ومحمد بن نوشتكين وبعض الأمراء في الحكومة ليصل إلى المقام والمنصب الحوفي، ١٩٦٦م: ٣٦). ولكن لم يروا اعتباره كما قال:

خَلِيلِي هَلْ تُجِدِي عَلَيَّ فِضَائِلِي إِذَا أَنَا لَمْ أُرْفَعْ عَلَيَّ كُلِّ جَاهِلٍ
مِنَ الْعَيْنِ ذُو نَقْصٍ يُصِيبُ مَنَازِلَا أَخَوَالِ الْفَضْلِ مَحْقُوقٌ بِتِلْكَ الْأَفْضَالِ
وَمَنْ لِي بِحَقِّي بَعْدَمَا وَقَّرْتَ عَلَيَّ أَرَادَهَا الدُّنْيَا حَقُوقَ الْأَمَائِلِ
وَمَاحِقٌ مِثْلِي أَنْ يَكُونَ مُضِيْعًا وَقَدَّعْظُمْتُ عِنْدَ الْوَزِيرِ وَسَائِلِي

(الزمخشري، ٢٠٠٤م: ٩٨)

وفي سنة ٥١٢ الهجرية القمرية أي عندما كان ابن الخامسة والاربعين، أصيب بمرض شديد يسمى الناهكة وتعاهد مع الله لثلاثا يدخل بلاط الملوك بعد أن يبرأ من المرض وألا يمدحهم أبدا وأن يرفض هدايا البلاط ورواتب أصحابهم وأن يمسك بجبل الإيمان فقط ولا يفكر في شيء سوى العبادة وتعليم القرآن والفقه والحديث. (الزمخشري، ١٣٢٥ق: ٥)

بعد هذا المرض، الزمخشري لم يعد يفكر في المنزلة والمقام وبدأ صفحة أخرى في حياتها وهي تسلق جبال العلم. ولهذا اتجه نحو بغداد للوصول إلى هدف أكبر وتلمذ عند علمائها فترة ولكن سرعان ما ذهب إلى مكة للخلاص من المطامع الدنيوية ولطلب المغفرة وعندما دخل مكة زار أمير مكة أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس الشريف الحسيني الذي كان رجلا عالما وشاعرا وفاضلا. (حموي، ١٩٩٣م: ٨٥) وإنه استقبال الزمخشري بحفاوة ورحب به واستفاد من علمه كما استفاد الزمخشري من علمه. (القفطي، ١٩٥٥م: ٢٨٦) بعد مضي سنتين اشتاق الزمخشري لزيارة البلاد ورجع إليها ولكن كان لا يطيق البعد من مكة وسافر مرة أخرى إلى مكة. وفي سنة ٥٢٦ الهجرية القمرية دخل مكة وبقي هناك ثلاث سنين وفي هذه السنوات شجعه ابن وهاس لكتابة تفسير الكشاف. إنه سكن قرب البيت الإلهي ولهذا لقب بجار الله وكما يقول الزمخشري نفسه، إنه بقي في مكة خمس سنين:

فَجَاوَرْتُ رَبِّي وَهُوَ خَيْرٌ مُجَاوِرٍ لَدَى بَيْتِهِ الْبَيْتِ الْحَرَمِ عَاكِفَا

١. نُجْدِي: تنفع - الْعَيْن: الضعف و النقص - أمائل: جمع مائل: الذي زال ومال عن استوائه.

أَقَمْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ حَمْسًا كَوَامِلًا وَصَادَفْتُ سَبْعًا بِالْمَعْرِفِ وَاقِفًا

(الزمخشري، ٢٠٠٤ق: ٢١٦)

الزمخشري بعد فترة رجع إلى خوارزم مسقط رأسه وبقي فيها حتى نهاية عمره وتوفي في ليلة عرفة في سنة ٥٣٨ الهجرية القمرية في جرجانية - قرية على شاطئ نهر جيحون - ودفن هناك. (الذهبي، ١٩٩٣م: ١٥٥)

لأبي القاسم الزمخشري تأليفات عدة في مجالات مختلفة مثل النحو واللغة والأدب والتفسير والحديث... وديوانه الذي كان أكثر من ٦٠٠ صفحة وتم طبعه لأول مرة سنة ٢٠٠٤ للميلاد بواسطة عبدالستار ضيف.

يشمل ديوان الزمخشري ٣١٢ قصيدة وخمسة آلاف بيت ويبدأ بمقدمة جميلة في مدح الخالق تعالى ويقول: «أبدأ بحمد الله على هدايته لأقوم السبل وأتني بالصلاة على خاتم الأنبياء والرسل، فإن الذكر مضمراً لحمد الله فيه قدمة المجلي، والصلاة على مصطفىاه محمد قدوة المصلي...» ولأشعاره مضامين مختلفة مثل المدح والرثاء والفخر والحكمة والشكوى... ونحن نشير إليها إشارة وجيزة.

المدح

لقد شغل المديح معظم ديوان الزمخشري فهناك أكثر من ثلاثة آلاف بيت من المديح (عبد عمرو، ١٩٧٩م: ٩٨) ويمكن تقسيم مدحه الذي يشمل نصف ديوانه إلى أربعة أقسام: ١- النبويات: للزمخشري عدّة قصائد في مدح الرسول (ص) وأطلق عليه "النبويات" وجعلها في المنزلة الأولى بين قصائده، فجاءت في ترتيب ديوانه متصدّرة. ولعل الشاعر إتجه إلى هذا النوع من المدح في فترة زهده وتنسكه بعد أن انصرف عن الدنيا، وصرف عن مدح رجال الدولة، واتجه إلى الله بكل أعماله وأحاسيسه، فكان هذا المدح النبوي تعبيراً صادقاً عما أحس به في هذا الطور من حياته. (ضيف، ١٩٩٤م: ١٢٥) ومن ذلك قصيدته الأولى من الديوان ومطلعها:

أَدَارُ الْأَلَى حَلْوَكِ أَيْنَ أَوْلَيْكَ أَرَاكِ مَحَلًّا لِلظَّبَاءِ الْأَوَارِكِ^١

(الزمخشري، ٢٠٠٤: ٢٥)

١. الأوارك: جمع أركة وهي التي ترعى الأراك.

٢- مدح الأمراء وكبار الدولة: الذي يرجع إلى الطور الأول من حياة شاعرنا. وهذا النوع من مدائحه يدخل كثير منه في "مدح التكسب" مثل قصائده في مدح نظام الملك: فأنت وجه الدولة الصاحب الذي له همة طالت على المتناول
وإن لك الإنعام والراحة التي إليها يجار الأرض مثل الجدول^١
(نفس المصدر: ٩٩)

٣- مدح الأساتذة والأصدقاء: كان الزمخشري عظيم الإكبار لإساتذته، شديد الوفاء لهم، يفخر بتلمذته لهم ويعدد مناقبهم. وكان استاذه فريد العصر ابو مضر، أحب اساتذته إليه، لأنه كان أعظمهم أثرا في حياته (ضيف، ١٩٩٤م: ١٢٩)، وكان يعشقه من صميم قلبه؛ ومدائحه هذه مليئة بعاطفة صادقة:

هو المرتضى وجهاً وخلقاً وإتني لأشتاق ذاك الوجه بل ذلك الخلقاً
وما يطبني الأيك إلا لآتني أساعد في الشجو الحمام به الورقا
وإن عصفت ريح الشمال ذكرته وإسراعهُ نحو المكارم والسبقا
وإن مد جيحون تذكرت فيضهُ بما يعمر الإذهان والألسن الذلقا^٢

(الزمخشري، ٢٠٠٤: ١٢٨)

٤- مدح العرب: حبّ الزمخشري للعرب ولغتهم جلّي وقصيدته المسماة بالعربية نموذج من هذا الحبّ وهو أشاد فيها بصفات العرب وأخلاقهم ومطلعها:
أيا عرصات الحمى أين الأوانس رحلن وحلتك الطباء الكوانس^٣
(نفس المصدر: ٣٦)

وإذا كانت قصائد المدح كثيرة عند الشاعر فلاننسى امتزاجها بالأغراض الأخرى كالفخر والشكوى والحكمة والهجاء.

الرثاء

يعدّ الرثاء الغرض الثاني من حيث الكثرة في ديوان الزمخشري؛ فهناك إحدى

١. المتناول: المتكبر، المترفع.

٢. الأيك: الشجر - الذلق: يقال: لسان ذلق: حديد بليغ.

٣. الكوانس: الطباء تدخل كناسها أو بيتها.

وعشرون قصيدة وتسع مقطوعات في الرثاء، تعداد أبياتها خمسة وسبعون وخمسمائة بيت. (عبد عمرو، ١٩٧٩م: ١٠٧) ويمكن تقسيم الرثاء إلى نوعين: الأولي: رثاء الأقرباء والأصدقاء التي نحس فيها بالعاطفة الجياشة نحو رثائه لأمه:

يا حادثاتِ الدهرِ أمِّي بعدما أدركتِ أمِّي بالرّدى من شيتِ
روحى وأرواحِ العشيرةِ بعدها جَلَلٌ عَدْرَتُكَ أَيُّهِنَّ غَشِيَتْ
لو كان يرثى حادثٌ بالنفسِ أو بالمالِ أو بكلَيْهما لَرُثِيَتْ^١

(الزمخشري، ٢٠٠٤م: ٤٠٧)

كان الشاعر صادقاً في رثاء أمه وأبيه وأصدقائه ويحبهم حباً جما ويمكن فهم احساسه العميق بسبب فقدانهم عبر كلماته وعباراته في أشعاره. والثانية: رثاء الأمراء: لانرى الصدق ولا أثرا للحنن على المرثى في هذا النوع من قصائد الزمخشري:

على تاجِ النِّساءِ الشَّمْسُ تَبْكِي تُوافِقُ صِنُوهَا شَمْسَ المعالي
لئن تاجُ النِّساءِ مَضَتْ وَفَاتَتْ لَقَدْ أَبَقَتْ لَنَا تاجَ الرِّجالِ
وأربابُ الحِجَى إن يسلّموا لم أبالِ بِمَوْتِ رَبَّاتِ الحِجالِ

(نفس المصدر: ٣٣١)

والزمخشري في هذه القصيدة الباردة والخالية عن العاطفة يعزى شمس المعالي بسبب موت زوجته وليس في هذه القصيدة البكاء والهموم بل موت النساء فيها يعتبر قضية ساذجة وعادية!

الشوقيات

قصائد يعبر فيها عن حنينه إلى مكة وشوقه إلى شريفها ابن وهاس وحنينه إلى وطنه وقومه وأصدقائه. (ضيف، ١٩٩٤م: ١٤٩) من حنينه إلى مكة:

وَلِي نَفْسٌ شِبْهُ اللّهِيبِ تَصَعَّدَتْ به زفرةٌ كالتارِ ذاكِيةَ الجمرِ
يذِيبُ مضامينَ الشؤونِ بِجَرِّهِ فتجرى شآبيبُ الحميمِ على نحرِي

١. أمي: أمي الأولى بمعنى: أقدى - شيت: شئت و خفتت الهمزة للقافية - جَلَلٌ: (ضد) عظيم أو هين يسير، والمعنى الثاني هو المقصود هنا.

بكاءً على أيامِ مَكَّةَ إِنَّ بِي إِلَيْهَا حَنِينَ النَّابِ فَافْقَدَةَ الْبَكْرِ

(الزمخشري، ٢٠٠٤م: ٥٠)

جارالله الزمخشري فريد في هذه القصائد ويعلم حبه دون أى خوف ويلتذ من مجالسته ويظهر عواطفه وأحاسيسه القلبية في وصف الأرض والمحجوب بكل صدق.

الفخر

الفخر من أهم الأغراض الشعرية لدى الشعراء ونجد الفخر في ديوان جل الشعراء، لأنه في الحقيقة مدح النفس وفي ديوان شاعرنا الكثير من القصائد في الفخر منها أطول قصيدته في ١٣٩ بيتاً وجمع فيها ما تفرق في غيرها من فضائله ومفاخره، افتخر فيها بكرم نسبه وسلامة عقيدته وصحة مذهبه وكرمه وتقاه وعفته ونبوغه في العلوم المختلفة مثل النحو والبلاغة والحديث والتفسير والعروض والكلام والنظم... مطلعها:

تَرَانِي فِي عِلْمِ الْمُنَزَّلِ عَالِماً وَمَا أَنَا فِي عِلْمِ الْأَحَادِيثِ رَاسِفاً

(نفس المصدر: ٢١٢)

الحكمة: إن الزمخشري أصبح رجلاً حكيماً بسبب كثرة أسفاره وتجاربه المختلفة وزهده وحب التفكير وكسب العلم:

هُوَ أَكْ أَعْمَى فَلَا تَجْعَلْهُ مُتَّبِعاً لَا يَعْتَسِفُ بِكَ عَنْ بِيضَاءِ مَسْلُوكِهِ
أَتْرُكُهُ وَآمَسِ عَلَى آثَارِ عَقْلِكَ فِي مَحَجَّةٍ مِثْلَهَا لَيْسَتْ بِمُتْرُوكِهِ
فَالْعَقْلُ هَادٍ بِصِيرٍ لَا يَزِيغُ إِلَى بَصِيرَةٍ عَنْ سَدَادِ الرَّأْيِ مَأْفُوكِهِ

(نفس المصدر: ٥٩٩)

ويتجلى ذلك الاهتمام بالحكمة في بداية قصائد الرثاء والتعزية في قالب حكيم يتضمن حديثاً عن الموت والحياة والعمل الصالح والآخرة وغير ذلك.

والزهد والوصف والغزل والشكوى والهجاء... من أغراضه الشعرية الأخرى

لدى الزمخشري التي لن تعالج بها هذه الدراسة.

١. الشسؤون: جمع "شان" العرق الذي تجرى منه الدموع. - الشآيب: جمع "شؤبوب" الدفعة من المطر.

- الحميم: الماء الحار. - الناب: الناقة المسنة. - البكر: الفتى من الإبل.

٢. الراسف: الذى يمشى مشى المقيد.

بنية القصيدة

القصيدة هي قالب الوحيد في العصر الجاهلي لدى العرب وهذا القالب بالرغم من التغييرات التي طرأت عليه حفظ على بنيتها إلى حد. (دودبوتا، ١٣٨٢ش: ٥٣)

بنية القصيدة في الأدب العربي منذ الجاهلية لها قالب محدد وكان الشعراء ينظمون قصائدهم حسب هذا القالب ثم جعل النقاد هذا القالب كأساس عملهم ورأى النقاد بأن القصيدة العربية تتشكل من عدة أقسام وكل قسم مقدمة للقسم التالي. المرحلة الأولى مقدمة في ذكر المحبوب والوطن والبكاء على الاطلال و... المرحلة الثانية هي النسب والشاعر يشكو من حبه للمحبيب وفراقه والمرحلة الثالثة تشمل الرحلة والسفر والسرى ووصف الناقة وحر الشمس عند الظهر ... وأخيرا الشاعر يدخل الغرض الرئيس من القصيدة أي المدح أو الرثاء أو الأغراض الأخرى. (ابن قتيبة، ١٩٦٦م: ٧٤ و٧٥)

للقصيدة مصطلحاتها الخاصة والبيت الأول يسمى المطلع وبضع أبيات في بداية القصيدة تسمى التشبيب أو النسب أو الغزل وهي كمقدمة للقصيدة. والتخلص هو حلقة الاتصال بين الغزل والغرض الرئيس والأبيات في نهاية القصيدة أيضا تختص بالدعاء. بسبب طول القصيدة ووحدة القوافي يضطر الشاعر أحيانا إلى تجديد المطلع أي تصبح قافية المصراع الأول من بيت في وسط القصيدة نفس القافية في المصارع الثانية. ثم يستطيع الشاعر استخدام القوافي المتكررة مع القسم السابق في شعره. (ماحوزي، ١٣٧٢ش: ٢٨٩-٢٩١)

وفي هذه المقالة نحاول دراسة أصول القصيدة العربية الجاهلية أي المقدمة، والمطلع، والتخلص، والمقطع، ووحدة الموضوع في شعر الزمخشري.

المقدمة

الشعراء الجاهليون لم يكتفوا بمقدمة واحدة بل إنهم كانوا يبدأون قصائدهم مع المقدمة الطللية أو الغزلية أو وصف الرحل والشجاعة والفروسية و... (عطوان ١٩٦٦: ٢٥٦) وهذا الأسلوب كان رائجا في العصر الجاهلي والإسلامي والاموي بسبب ظروفهم المعيشية ومعظم الشعراء كانوا يلزمون أنفسهم باتباع هذا الأسلوب وقليل ما

نرى التخطى من هذا الأسلوب مما نرى عند الأخطل الذى يبدأ القصيدة بوصف الخمر.
(الأخطل، لاتا: ٧٦)

بعد نشأة حكومة العباسيين وظهور الخلافات الثقافية والاجتماعية والسياسية العميقة والتنوع فى أساليب الحياة، انقسم الشعراء إلى قسمين؛ قسم منهم كانوا يتبعون القديم ويدافعون عن التراث العربى القديم وقسم آخر كانوا يريدون الإطلاق من التقاليد وثاروا عليها ودعوا الشعراء الآخرين للثورة عليهم والشاعر أبونواس زعيم هؤلاء الشعراء وهو يبدأ قصيدته بوصف الخمر ويدعو الشعراء بجانب البكاء على الأطلال فى مقدمة القصيدة. (عطوان ١٩٦٦م: ١٠٥)

اتركِ الأطلالَ لا تَعْبَأِ بِهَا، إِنَّهَا مَنْ كُلِّ بَوْسٍ دَائِيَةٌ

(أبو نواس، لاتا: ١١٩)

هل يبدأ الزمخشري قصيدته بالبكاء على الأطلال والنسيب والغزل أو يخطط خطوات أبى نؤاس فى الإبداع ويثور على القديم؟

كاتبو المقالة بعد دراسة وافية لشعر الشاعر استنتجوا بأن يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، قصائد قدم لها بمقدمات الطللية (البكاء على الأطلال والدمن و...) وقصائد بدأها بمقدمات أخرى مثل المقدمة الغزلية والمقدمة الحكيمية و... وقصائد ومقطوعات نظمها دون المقدمة.

فى المقدمة الطللية بدأ الشاعر قصيدته بذكر الأطلال وتعيين مكانه فذكر ما بقى من آثار المنازل ورسومه مع ذكر ما فعلته الرياح والأمطار فيها وذرف الدموع عليها لذكرى الأحباب وحيدا أو مع صاحبة و... هل التزم الزمخشري به؟

لقد بدأ الزمخشري الكثير من مدائحه للرسول الأكرم (ص) وصديقه ابن وهاس بالمقدمة الطللية وهو فى إنشاده هذا حذو الشعراء المشهورين مثل امرئ القيس والأعشى مثل ما جاء فى صفحات ٢٥ و ٢٩ و ٣٥ و ٤٢ و ٤٩ و ٦٦ و ٧٠ و ٧٨ و ٨١ و ٩٣ و ١٠٠ و ٢٣٤ و ٢٤٦ و ٣٠٥ و ٣٣٤ و ٣٥٠ و... ونكتفى هنا بالإشارة إلى مقدمة قصيدته فى مدح صدرالدين محمد حفيد نظام الملك:

تبدأ القصيدة مع ذكر صاحبة الشاعر وديارها ورسومها وذكر حبّه وذرف دموعه

لأجله و ذكر أيام عهده بسلمى ووصفها و...:

سلا دارة الخلصاء كيف هضابها وما صنعت أجزاعها و شعابها
 وهل بديار العامرية عامر سوى رقيقة تبكى و ترغو ركابها
 وقفنا بها ركب الغرام فلم تجب فلجت دموع ما يفيق انسكابها
 وما بقيت أطلالها ورسومها صوامت إلا يوم صاح غرابها
 ملاعب من أتراب سلمى أسوفها فينفخ كالمسك السحيق ترابها
 وعهدى بسلمى وهى ساكنة الحمى تحصن بالقلب العتاق قباها^١

(ديوان الزمخشري، ٢٠٠٤م: ٧٠)

والزمخشري في مقدماته هذه كان مقلدا فلذا ليست عباراته متساقطة وعاطفته صادقة لذكرى أحبائه سلمى وسلمى وخلصاء اللاتي من العشيقات الحقيقية لامرئ القيس وزهير والأعشى؛ هنّ عند شاعرنا لسن إلا تمثيلا؛ والأطلال التي يبكي عليها امرؤ القيس ويتذكر ذكرياتها في كل زاوية منها في ديوان شاعرنا خيال يذهب بنا إلى الماضي البعيد ويصور صوت المراكب ودلال النساء بشكل بارع حيث نظنّ بأننا هناك. الغزل من أجمل الأغراض الشعرية في وصف المحبوب، بداية لمعظم قصائد ديوان الزمخشري وبما أن ذبوع صيت الزمخشري رهين بزهده وكتابه الكشاف، نظنّ بأن أشعاره تدور حول الزهد والتصوف ولكن بعد دراسة ديوان هذا الشاعر العالم فهمنا بأن الصحيح هو العكس والشاعر في معظم قصائده يبدأ القصيدة مع الأبيات الغزلية مثلما كان عند معظم الشعراء.

ويمكن تقسيم مقدمات الزمخشري الغزلية إلى ثلاثة أقسام:

الغزل الصوفي: البعد من الهوى ورجاء وصال الحق ومصاحبة المحبوب من ميزات الزمخشري الذاتية وأشعاره في هذا الغرض، تعبير صادق عن شعوره مثل ما في مقدمته الغزلية في مدح شمس الدين الوزير وفيها يشبه الشاعر قلبه بقلب الأسد الذي لا يهتز

١. الدارة: أرض واسعة بين الجبال. - الخلصاء: ماء لعبادة بنجد أو بالحجاز أو بلد بالدنهان. - أجزاع: جمع جزع: من الوادى حيث تقطعه. - لجت: تبادت في العناد ولازمت الانسكاب. - صاح غرابها: حل بينها على زعمهم بأن نعيب الغراب إنذار بالبين - أسوفها: أشتها.

بالظباء في الأجمة وتقوى الله حفظه من الهوى لأنه فضل الحياة الصعبة في ظل العبادة
وطاعة الله على اللهو والراحة الدنيوية:

أَتَبَزُّ عَنْ عِطْفِي رِدَاءَ الدِّينِ أَجِيَادُ غِزْلَانٍ وَأَعِينُ عَيْنِ
أَيْرُوعِنِي ظَبِي الكِنَاسِ وَإِنَّ لِي قَلْباً يِضَاهِي قَلْبَ لَيْثِ عَرِينِ
أَنَا لَا تُبَدِّلُ بِهَوُونِنَا شِدَّتِي وَخُشُونِنِي لَيْسَتْ تُبَاعُ بِلِينِ
عَفْتُ الهَوَى وَعَفَفْتُ عَنْهُ وَاقِيًّا عَرِضِي بِدِرْعٍ مِنْ تُقَايَ رَصِينِ^١

(نفس المصدر: ٣٧٢)

لقد تنسك، وسلك سبيل الرشاد، وارتدى لباس التقوى، وعار على مثله أن يلم
بالغى، وأولى بالجميلات أن يصرفن عنه سهام أعينهن؛ لأنها تفتك بتقواه، وما أشد ذلك
على نفسه إن وقع، إنها الحسرة التي تنهك النفس غاية النهك. (ضيف، ١٩٩٤م: ١٨٥):

فَلَهْفِي عَلَى تَقْوَى قَصْرَتْ سِتُورَهَا عَلَيَّ فَاهَوَتْ مُقَلَّتَاهَا لِهَتِكِهَا
وَعَارٌ عَلَى نَفْسِي اطْرَاحَ رَشَادِهَا وَإِمَامُهَا بِالْغَى مِنْ بَعْدِ نُسْكِهَا
وَمَا يَنْهَكُ النَّفْسَ الْعَزِيزَةَ نَاهِكٌ كَمَوْقِفِ عَارٍ تَلِكِ غَايَةَ نَهْكِهَا

(الزمخشري، ٢٠٠٤م: ٧٨)

الغزل العذرى: نوح الزمخشري في نظم هذا النوع من الشعر نجاحا تاما حيث إن لم
نعرف حياته نظن بأنه متيم جن به الحب. وفي القصيدة التالية يذكر سعدى ومصاحبته في
الخيام ويعتقد بأن الحياة هي مصاحبة المحبوب والموت هو فراق المحبوب ويدعو له من
صميم قلبه مع أنه يدري بأن المحبوب لا يجيب عنه ويرجو من الله أن يجعل وطنها مخصبا:

أَيَا حَيِّدَا سَعْدَى وَحَبِّ مَقَامُهَا وَ لَا حَيِّدَا أَنْ تَسْتَقِلَّ خِيَامُهَا
حَيَاتِي وَمَوْتِي قُرْبُ سَعْدَى وَبُعْدُهَا وَعَزِي وَذُلِّي وَصَلُّهَا وَأَنْصِرَامُهَا
سَلَامٌ عَلَيْهَا أَيْنَ أَمَسَتْ وَأَصْبَحَتْ وَإِنْ كَانَ لَا يُقْرَأُ عَلَيَّ سَلَامُهَا
رَعَى اللهُ سِرْحَانَ قَدْرَعِي فِيهِ سِرْحَانُهَا^٢ وَرَوْضَ أَرْضِ سَامٍ فِيهَا سَوَامُهَا^٢

(نفس المصدر: ٨١)

١. تَبَزُّ الشَّيْءُ: تَأْخُذُهُ قَهْرًا. الْعَيْنُ: بَقْرُ الْوَحْشِ وَمِنْ النِّسَاءِ مِنْ عَظْمِ سَوَادِ أَعْيُنِهِنَّ فِي سَعَةِ. - كِنَاسُ
الظبي: مَسْتَرَهُ فِي الشَّجَرِ.

٢. السرح: شجر عظاموكل شجر لا شوك فيه. السوام: الإبل الراعية.

وفي قصيدة أخرى يقوم بوصف المحبوب ويشبهه بولد الظبي ناعمق رجل ويد كغصون
البان المياسة ووجنتيه المضيئة التي تحترق قلبه وتنهمر دموعه:

رَشَاءُ كَخَوِطِ البَانَةِ المِيَّاسِ مَا يَرْتَضِي غَيْرَ الحِشَاءِ بِكَنَاسِ
فِي وَجَنَّتِيهِ ضَوْءٌ مِقْبَاسٍ وَفِي صَدْرِ المَتِيمِ حُرْقَةٌ المِقْبَاسِ
يَبْقَى الذِي يَرْمِي إِلَيْهِ بِنَظَرَةٍ مِثْلَ الذِي يَغْدُو صَرِيحَ الكَاسِ^١

(نفس المصدر: ٤٤١)

وما كان لنا أن ننخدع بهذه الآهات ولاتلك الزفرات ولاهاته العبرات؛ فما هي إلا
نزعة التقليد للشعراء الجاهليين.

الغزل الحسى: الغزل الحسى أو الغزل الحضري شعر في وصف الجمال الجسمى أو
تجسيم آمال الشاعر المشروعة أو غير المشروعة.

والزمخشري يقوم بوصف جمال عشيقته ببراعة خاصة وأنه في إتجاهه هذا ووصفه
إياها مقلد وفي اختيار اسم هؤلاء العشيقات حذا حذو القدامى من أمثال عمر بن ابي
ربيعة و بشار بن برد.

في المقدمة التالية قام شاعرنا بتصوير جمال عشيقته الخلاب وطيب العناق وتلاقى
الشفاه و ارتشاف الرضاب:

الأقل لسعدى ما لنا فيك من وطر وما تطبيننا النجل من أعين البقر
فإن العيون الضيقات وأهلها بهم علقت منا الضمائر والفكر
تقاصر ساقاه ولكن منته طويل فما في القد طول ولا قصر
وقلت له جئني بورد وإنما أردت به ورد الحدود وما شعر
أيا حبذا تقبيل فيه ورشفه وبرد ثناياه إذا برد السحر^٢

(نفس المصدر: ١١٨)

وفي الأبيات التالية يشبه عشيقته رشأ (ولد الظبي) جميلا ويتذكر تقبيل شفقي المحبوب

١. رشأ: ولد الظبية. - الخوط: الفصن الناعم. - الكناس: بيت الظبي. - المقباس: شعلة النار تؤخذ
من معظم النار.

٢. تطبيننا: تشوقنا و تستهويننا. - الوطر: الحاجة. - النجل: الولد.

العاطر مع وجهه الذى يشبه القمر:

مَنْ مُنْصِفِي مِّنْ شَادِنِ تِيَاهِ شَغَفِي بِهِ لِجَمَالِهِ مُتْنَاهِي
يَا حَبْدَا رِيًّا مُقْبَلَةً التِي أَشْتَمُّهَا عِنْدَ التَّقَاءِ شِفَاهِ
رَشَاءُ أَخَالِ الْبَدْرِ فَارِقَ بُرْجِهِ فَهَوَى إِلَى مَتَى أَرَاهُ تُجَاهِي ١

(نفس المصدر: ٣٨٠)

والزخشرى يخطو خطواته في وصف المحبوب حيث لا يمكن أن نصدق التقليد فيه:

يَا حَبْدًا لَيْلَةً خَلَوْتُ بِهَا تَلْتُمْنِي تَارَةً وَأَلْتُمَهَا
مَازَلْتُ سَكَرَانَ لَا إِفَاقَةَ لِي مُنْذُ سَقَانِي عُقَارَهُ فَمُهَا ٢

(نفس المصدر: ٥٢٥)

عندما نتأمل في غزل الزخشرى يخطر على بالنا هذا السؤال: هل هناك مرحلة مجهولة في حياة الزخشرى عندما كان شابا وكان هناك حبا حقيقيا بات مغفولا لنا؟ ومن مقدمات ديوان الزخشرى الأخرى، المقدمة الحكيمة التي يبدأ الشاعر قصيدته معها. وبما أن الزخشرى كان من المعمرين وسافر إلى أنحاء البلاد وبسبب زهده وحب التفكير والتعلم، جعله رجلا حكيما محنكا. هذا النوع من المقدمة جاء غالبا في بدء قصائد الرثاء والتعزية، يقدم فيها تجاربه عن الحياة والموت؛ نرى منها في صفحات ديوانه التالية ١٣٤ و ٢٧٣ و ٢٨٠ و... مثل مقدمة رثائه في موت فريد العصر وهو يطلب فيها ترك الدنيا لأنها فانية والعمل للآخرة لأنها باقية:

أَيَا طَالِبِ الدُّنْيَا وَيَا تَارِكَ الأُخْرَى سَتَعَلَّمُ بَعْدَ المَوْتِ أَيُّهُمَا أُخْرَى
أَلَمْ يَقْرَعُوا بِالْحَقِّ سَمْعَكَ؟ قُلْ: بَلَى وَذُكِّرْتَ بِالآيَاتِ لَوْ تَنْفَعُ الذُّكْرَى
وَلَا بُدَّ لِلإنْسَانِ مِنْ سَكْرَةِ الرِّدَى وَمِنْ سَاعَةٍ لِأَصْحَوْ فِيهَا وَلَا سُكْرَا
فَذُو اللَّبِّ مَنْ لَمْ يَطْعَمِ النَّوْمَ جَفْنُهُ وَلَمْ يَغْتَمِضْ خَوْفَ التَّلَقُّى بِالْبُشْرَى
وَأَيُّقِنَنَّ أَنَّ المَوْتَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ طَلَائِعُهُ تَسْرَى فَقَدْ أَخَذَ الحِذْرَا

(نفس المصدر: ١٣٤)

١. الشادين: ولد الظبي.

٢. العقار: الخمر.

الشاعر يجعل مقدماته الحكمية في صدر مرثيته ليدعو أقرباء الموتى إلى الهدوء ويرى الموت أمرا حتميا والحياة أمرا مؤقتا وقصيرا لا يجدر تعلق الإنسان بها. المقدمة الخمرية إن كانت مقدمة لمعظم قصائد أبي نواس بسيطة جدا في ديوان شاعرنا الزمخشري كمقدمة قصيدته التي يمدح بها ابن إسحاق:

كُرِّرْ عَلَى كُؤُوسِ الرَّاحِ يَا سَاقِي حَتَّى تَرَى الْمَيْلَ فِي عِطْفِي وَفِي سَاقِي
قُمْ فَارْقِنِي إِنْ صَلَّى اللَّهُمَّ يَلْسَعُنِي وَالرُّقِيَّةُ الرَّاحُ وَالرَّاقِي هُوَ السَّاقِي
قَالُوا الْمُدَامَةُ تَرِياقٌ لِشَارِبِهَا فَهَاتِ يَا أَمْلَحَ السَّاقِينَ تَرِياقِي

(نفس المصدر: ٢٣٩)

جارا لله الزمخشري يبدأ قصيدته بالبراعة في وصف الخمر ولكن يرفض شرب الخمر. فإذا يفتخر أبو نواس بالسكر ولكن الزمخشري افتخاره بعدم شربه الخمر ويبدأ قصيدته بهذه ليقول لمنافسيه لا يشقون غباره في مجال الأدب.

-الشاعر في الكثير من القطع والقصائد لا يتبع بنية القصيدة الجاهلية فيترك شعره دون المقدمة ويجعل الغرض الرئيس في بداية كلامه؛ كما عدم استخدام المقدمة واللجوء إلى الغرض الرئيس مشهود في قصيدته في مديحه لعبدالله:

مَحَلُّكَ - عبدالله - لَيْسَ يُنَالُ أَبِي ذَاكَ عَزْشَامُخٌ وَجَلَالُ

(نفس المصدر: ١١٧)

أو في مدح فخر الفريقين قاضي خوارزم:

أَفْخَرَ الْفَرِيقَيْنِ الَّذِي أَمْرُهُ الْأَمْرُ هَنِيئًا لَكَ النَّيْرُوزُ وَالْعِيدُ الْفِطْرُ

(نفس المصدر: ١٥٦)

وقصيدته في رثاء عبيدالله:

أَتَخَضَّرُ أَشْجَارَ الرَّبِيعِ وَتُورِقُ وَرُزْءُ عُبَيْدِ اللَّهِ نَارٌ تُحَرِّقُ

(نفس المصدر: ١٧٦)

وفي رثاء موت محمد بن ارسلان:

مُحَمَّدُ بْنُ أَرْسَلَانَ الَّذِي رُثِيَتْ مَعَالِمُ الْعِلْمِ وَالْإِسْلَامِ حِينَ رُثِيَتْ

(نفس المصدر: ٢٣٦)

الزمخشرى هو الشاعر العالم الذى يسلك أحسن طريق فى مقدمة قصائده ويحاول دوماً التوسط بين القديم والجديد ويقف بين تيارين أو دافعين يتنازعانه، الأول حبه فى أن يكون شعره على طريقة سابقته، فجاء بالمقدمة الطللية وغيرها، دون أن يكون له ارتباط بالديار وساكنيها والثانى حبه للتحرر والانطلاق على سجيته ويبدأ قصيدته بالغرض المباشرة.

مطلع القصيدة

البيت الأول من القصيدة يسمى المطلع ويشترط فى المطلع أن يكون مصرعاً (همايى، ١٣٨٩ش: ٧٣) ومن شروط حسن المطلع أن يكون التناسب بين المصريعين حيث لا يكون المصراع الأول مختلفاً عن المصراع الثانى. (ابن حجة الحموى، ١٣٠٤ق: ٣) وكان الشعراء المجيدون يعنون بجودة مطالعهم، وما زال الشعراء على تلاحق العصور يتأقنون فى اختيار المطالع، لأنها أول ما يقرع الأسماع فينبئ عن منزلة القائل وقيمة الشعر. (الحوفى، ١٩٧٢م: ٢٩٦)

وبعد أن عرفنا المقصود بمطلع القصيدة أو ما سماه النقاد بحسن الإبتداء أو براعة الاستهلال علينا أن نعرف مطالع شاعرنا الزمخشرى.

لقد كان الزمخشرى حريصاً على مطالع قصائده، وهو لا يألو عن جهد فى تحسينها دوماً لكى طيبة الوقع فى السمع، بعيدة عن التجافى والتنافر فى قسميها، مشعرة بالغرض من القصيدة. وليس هناك مجال لتناول إلى كلها فنكتفى بذكر بعض نماذج منها:

مطلع احدى قصائده فى الحنين إلى مكة ووصف مدى شوق الشاعر إلى الكعبة من أحسن النماذج:

فَوَادُّ مِنَ الشُّوقِ الْمُبْرَّحِ رِيَّانُ إِلَى حَرَمِ اللَّهِ الْمُعْظَمِ ظَمَانُ

(الزمخشرى، ٢٠٠٤م: ٤٦)

وفى بداية قصيدته يصف انتصار خوارزمشاه ويشيد بالإسلام والمسلمين يقول:

الآن للإسلام مُدٌّ رَوَاقُ وَالآنَ عَادَ لِشَمْسِهِ إِشْرَاقُ

(نفس المصدر: ٣٩٠)

أو في رثاء سراج الدولة ينظم:

ذوالتاج يجمعُ عُدَّةً وَعَدِيدًا والموت يَبِطِشُ بالألوفِ وَحِيدًا

(نفس المصدر: ٤٠٠)

التخلص

تخلص القصيدة بمعنى الانتقال من التشبيب أو الغزل إلى المدح أو الغرض الآخر وحسن التخلص الذي نسميه المخلص أو حسن الخروج هو أن ينتقل الشاعر ببراعة من الغزل والتشبيب إلى المدح أو الغرض الآخر. (همايي، ١٣٨٩ش: ٧٦) وحسن التخلص أن يستطرد الشاعر من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد ولا يشترط أن يتعين المخلص منه بل يجري ذلك في أى معنى كان، فان الشاعر قد يتخلص من نسيب أو غزل أو فخر أو وصف أو معنى من المعاني يؤدي إلى مدح أو هجو أو وصف في حرب أو غير ذلك. (المحموى، ١٣٠٤ق: ١٨٥)

العلامة الزمخشري ينتقل من غرض إلى غرض آخر ببراعة ويجعل الاتصال بينها قويا حيث لا يدرك القارئ هذا الانتقال ومن نماذج الكثيرة نكفي بذكر بعضها. حسن تخلص الشاعر من انتقال المعنى من الحزن إلى المدح في قصيدة ٣٧ من الديوان:

وَهَفَى عَلَى عَصْرِ تَقْضَى مُنَاسِبٍ سَجَايَا فَرِيدِ الْعَصْرِ أَوْ وَجْهَهُ الطَّلَقَا

(نفس المصدر: ١٢٩)

والمزمخشري في قصيدة ٤٠ من ديوانه بعد الوعظ والحكمة ينتقل إلى الغرض الرئيس للقصيدة أى الرثاء:

وَكَمْ رَبِّ قَصْرٍ بَاتَ يُؤْنِسُ أَهْلَهُ وَفِي غَدِهِ قَدْ أَوْحَشَ الْأَهْلَ وَالْقَصْرَا
وَمَا زَالَ مَوْتُ الْمَرْءِ يُجْرِبُ دَارَهُ وَمَوْتُ فَرِيدِ الْعَصْرِ قَدْ خَرَّبَ الْعَصْرَا

(نفس المصدر: ١٣٤)

أو حسن التخلص لدى الشاعر في انتقال المعنى من النسب إلى المدح: (عبد عمرو،

١٩٧٩م: ١٥٤)

الْغُصْنُ مِنْ حُسَادٍ تَمَيَّلِهِ وَالْوَرْدُ مِنْ أَعْدَاءِ تَوْرِيدِهِ
لَيْسَ لَهُ فِي الْحُسْنِ مِثْلٌ وَلَا مِثْلَ عُبَيْدِ اللَّهِ فِي جَوْدِهِ

(نفس المصدر: ٤٨٧)

فحينما الشاعر يذكر محاسن حبيبته جاء بالبيت الثاني، شطره الأول في النسب وشرطه الثاني في المدح، وانتقل إلى غرضه بكل سهولة ويسر. جار الله الزمخشري يستخدم طريقتين في انتقال المعنى: الأول انتقال المعنى في بيت واحد من مصرع إلى مصرع آخر والثاني من البيتين أى من بيت إلى بيت آخر وذكر أنفا هذين النوعين من الانتقال.

المقطع

البيت الأخير من القصيدة يسمى المقطع ويقول أبو هلال العسكري في هذا المجال: يجدر أن يكون البيت الأخير من القصيدة أحسن بيت فيها. (العسكري، ١٩٥٢: ٤٦٣) وهو آخر ما يسمع أو يقرأ منها، فهو أخرى بأن يستقر بالنفس ويلقى بالسمع، ومن هنا كانت عناية الشعراء به وافتنانهم فيه. (الحوافي، ١٩٧٢م: ٢٩٩)

والزمخشري كما يهتم بمطلع القصيدة وتحسينه يهتم بمقطع القصيدة وتحسينه اهتماما تاما مثل مقطع قصيدته في مدح الرسول (ص):

وَمَنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَكْمَلَ مَدْحَهُ فَكُلُّ مَدِيحٍ مَا خَلَا ذَاكَ نَاقِصٌ

(الزمخشري، ٢٠٠٤م: ٣٤)

ختم الشاعر قصيدته بهذا المعنى الرائع وهو أشار إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى

خلق عظيم﴾ (القلم: ٤)

أو يقول في مقطع قصيدة أخرى في مدح ابن وهاس:

وَمَنْ لَفَّ مَجْدَى نَفْسِهِ وَنَصَابِهِ وَذَاكَ ابْنُ وَهَّاسٍ فَقَدْ بَلَغَ الْمَدَى

(نفس المصدر: ٤٥)

وفي نهاية قصيدة في وصف حنينه إلى مكة يقول:

وَقَلْتُ لِقَلْبِي قَدْ مَلَكَتْكَ مَرَّةً فَمَا أَنْتَ إِلَّا طَائِرٌ طَارَ عَن

(نفس المصدر: ٥١)

ومن ذلك ما ختم به قصيدته في رثاء شيخه أبي مضر:

فَذَاكَ فَرِيدُ الْعَصْرِ حَقًّا فَلَنْ تَرَى عِيُونُهُمْ مِنْ بَعْدِهِ مِثْلَهُ حُرًّا

(نفس المصدر: ١٣٧)

من ميزات مقاطع قصائد الزمخشري الفريدة يمكن الإشارة إلى أسلوبه الخاص في المديح وهو الإشادة بالقصيدة المنشودة وتقديمها إلى الممدوح؛ كأن يقول في مقطع قصيدة ٢٦ من الديوان:

وَحَذِكَلِمَةً حُذَاءَ شَاعِرَةٍ إِذَا رَأَاهَا رِجَالُ التَّقْدِيمِ يَجِدُوا نَقْدًا

(نفس المصدر: ١٠٣)

وكما ينظم في ختام مدحه لعبيدالله:

فَدُونُكَ طَوْقًا فَأَخْرَأَ قَدْ نَظَّمْتُهُ بِجَزَلٍ مِنَ الْمَعْنَى وَلَفْظٍ مُنْفَحٍ

(نفس المصدر: ١١٦)

هو في ختام إحدى قصائده يعتقد بأن شعره أحسن من معلقة امرئ القيس:

مَوْلِدَةٌ بَدَّ الْقَدِيمَاتِ شَأُوهَا بِهَا أَنْفٌ مِنْ أَنْ تُقَاسَ إِلَى "قِفَا"

(نفس المصدر: ٢٢٠)

وهو في مقطع مدحه لشرف الملك يشير بأن شعره فريد من نوعه:

وَشَعْرٌ مِثْلِي غَالٍ لِمَجُودَتِهِ وَجَيْدُ الشُّعْرِ مَا لَهُ ثَمْنٌ

(نفس المصدر: ٥١٧)

فمن كل ما سبق نرى أن الزمخشري قد أجاد في اختيار مقاطع قصائده، وهذه الأمثلة نموذج منه.

وحدة الموضوع

أكمل تعريف لوحدة الموضوع هو ما قال ابن رشيق: فإن القصيدة مثلها مثل خلق

الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر، أو باينه في صحة التركيب، غادر بالجسم عاهة، تتخون محاسنه، وتعفى معالمه، ووجدت حذاق الشعراء، وأرباب الصناعة من المحدثين، محترسين من مثل هذه الحال، احتراساً يجنبهم شوائب النقصان، ويقف بهم على محجة الإحسان، حتى يقع الاتصال، ويؤمن الانفصال، وتأتى القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها، وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة، والمخطبة الموجزة، لا يفصل جزء منها عن جزء. (بدوى، ١٩٥٢: ٣٢٦) والقصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر ولم تجر مجرى النوادر، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موضع. (الملاحظ، لا تا: ٢٠٦)

وبالنسبة لشعر الزمخشري الذي وليد عصر ازدهار الأدب العربي نرى ميزتين

مختلفتين:

- قصائد الزمخشري الطويلة معظمها في المدح والفخر لها عدة الموضوعات المتعددة؛ وهو في نظم هذه القصائد يجذو حذو القدامى ويبدأ شعره بذكر الأطلال والدمن وبكاء على رسوم منازل الأحبة وتذكر صботاته مع حبيبته النازحة ثم يصف وصف السفر وفراق المعشوق وينتقل إلى الغرض الرئيس براعة تامة ويختم القصيدة بحسن ختام جميل يعتبر من ميزاته الشعرية. فيمكن لنا أن نرى نماذج من هذا الشعر في الصفحات التالية من الديوان: ٢٥ و ٣٩ و ٧٠ و ٧٨ و ١١١ و ١٢٨ و ١٤٠ و ٢٤٦. والقصيدة المذكورة في صفحة ٢٤٦ من أجمل أشعار الزمخشري التي نظمه وفق الأساليب القديمة دون وحدة الموضوع؛ يبدأ الشاعر القصيدة بذكر أحبائه النازلين النعفين:

أهلاً بنازلة النعفين فالوادي ومَرَحَباً بالأنيس الحاضرِ البادي
هُم تارةً أهل حيطان مُشَيِّدةٍ وتارةً أهل أطنابٍ وأوتادٍ

(نفس المصدر: ٢٤٦)

وينظم أيامه السعيدة مع أحبائه:

يا حبذا دارُ أحبائي وساكنها وساحةُ الدارِ والسُّمارِ والنَّادي
وحبذا زمنٌ ساعاته فُرُصٌ وَكُلُّ أَيَّامه أَيَّامُ أعيادٍ

(نفس المصدر: ٢٤٦)

ويمضى الأبيات باكية على أثرهم:

ففى إقامتكم روحٍ لأفئدةٍ وفى رحيلكم صدعٌ لأكبادٍ

(نفس المصدر: ٢٤٦)

ثم يبين هيامه لحبيته سعدى شاكيا لمانعتها إيّاه:

ماضراً سعدى وروح الصبِّ في يدها لو أسعدته بوصول بعد إسعادٍ

ما ضرّها لو سقته من مرآشفها حتى تبلى غليل الهائم الصّادى

(نفس المصدر: ٢٤٦)

ثم تمضى القصيدة بعد ذلك في المدح وهو غرضها الأسمى بعد هذه المقدمة، وقد أجاد

الشاعر الربط وأحسن الانتقال من النسيب إلى المدح:

هيهات إن أسير الحبِّ ليس له فادوما القليل الحبُّ من وادى

بل الوزير الممدى رقى لي ففدى وذاك صنّع غريب غير مُعتادٍ

(نفس المصدر: ٢٤٦)

فالقصيدة عند شاعرنا وإن اختلفت أجزاءها وموضوعاتها تكون وحدة مترابطة منسجمة متصلة كما صورّه ابن الرشيقي.

- القصائد التي نظمت في موضوع واحد يشمل بعض القصائد والقطع القصيرة ومعظمها المراثي والشوقيات (القصائد التي نظمت في الحنين إلى مكة) وقصائده التي لا تبدأ بمقدمات. ونحن بعد الدراسة وجدنا أنّ هذا النوع أكثر عدة من النوع الاول؛ كما نرى هذا الجانب في الصفحات التالية: ٥٢ و ٥٩ و ١٠٨ و ١١٧ و ١٢٥ و ١٣٣ و ١٥٠ و ١٥٧ و ١٦٠ و ١٦٨ و ١٨١ و ١٨٢ و ١٩٠ و ٢٢٩ و ٢٥٩ و ٣٢٣ و ٣٩٠ و ٤١٢ و ٤٨٢ و ٥٥٣ و...؛ فمنه قصيدته في مدح خوارزمشاه في ٤١ بيتا ومطلعها:

الآن للإسلام مدٌّ رواقٌ والآن عاد لشمسه إشراقٌ

(الزمخشري، ٢٠٠٤م: ٣٩٠)

الشاعر من بداية القصيدة إلى نهايتها يتكلم عن انتصار محمد خوارزمشاه ابن انوشتكين ومدح الإسلام والمسلمين ولوم الكفار وهجوهم.

ولكن علينا أن لا نطلب من قصائد الزمخشري وحدة مثل الوحدة التي نلاحظها في

الشعر العربي الحديث كما هو عند البياتي أو السياب.

النتيجة

- بعد الانتهاء من هذه الدراسة لبنية القصيدة في شعر جارا الله الزمخشري، توصلت البحث إلى جملة من النتائج الأساسية نوجزها فيما يأتي:
- الزمخشري حافظ على نظام القصيدة العربية الجاهلية في معظم قصائده؛ وهو يبدأ القصيدة بمقدمات طللية وغزلية وحكمية وخرمية.
 - لقد بدأ الزمخشري الكثير من مدائحه للرسول الأكرم (ص) وصديقه ابن وهاس بالمقدمة الطللية وهو في إنشاده هذا حذو الشعراء الجاهليين.
 - نرى مقدمات الشاعر الغزلية في ثلاثة أنواع: الغزل الصوفي والغزل العذري والغزل الحسي؛ لقد كانت أشعاره في النوع الأول تعبيراً صادقاً عن شعوره وفي نوعي الثاني والثالث نزعة تقليدية ناجحة للشعراء الجاهليين.
 - الشاعر يجعل مقدماته الحكمية في صدر مرثيته ليدعو أقرباء الموتى إلى الهدوء ويرى الموت أمراً حتمياً والحياة أمراً مؤقتاً وقصيراً لا يجدر تعلق الإنسان بها.
 - وأما المقدمة الخمرية لم نجد إلا أبياتاً بسيطة في ديوان الزمخشري مقلداً أبا نواس والآخريين على مذهبه.
 - ينظم الزمخشري شعره دون المقدمة في الكثير من القطع والقصائد ولا يتبع بنية القصيدة الجاهلية وهو يبدأ قصيدته بالعرض مباشرة.
 - لقد كان الزمخشري حريصاً على مطالع قصائده، وهو لا يألو عن جهد في تحسينها دوماً لكي طيبة الوقع في السمع، بعيدة عن التجافي والتنافر في قسميها، مشعرة بالعرض من القصيدة.
 - أحسن التخلص العلامة الزمخشري وأجاد الانتقال من غرض إلى غرض آخر براعة ويجعل الاتصال بينها قويا حيث لا يدرك القارئ هذا الانتقال. وهو يستخدم طريقين في انتقال المعنى: الأول انتقال المعنى في بيت واحد من مصرع إلى مصرع آخر والثاني من البيتين أي من بيت إلى بيت آخر.

- والزمخشري كما يهتم بمطلع القصيدة وتحسينه يهتم بمقطع القصيدة وتحسينه اهتماما تاما؛ ومن ميزات مقاطع قصائده الفريدة يمكن الإشارة إلى أسلوبه الخاص في المديح وهو الإشادة بالقصيدة المنشودة وتقديمها إلى الممدوح.
- قصائد الزمخشري الطويلة معظمها في المدح والفخر لها عدة الموضوعات المتعددة؛ وهو في نظم هذه القصائد يحذو حذو القدماء ويبدأ شعره بذكر الأطلال والأحبة وصبواته ووصف السفر وفراق المعشوق و... .
- الأشعار التي نظمت في موضوع واحد يشمل القصائد والقطع القصيرة التي معظمها المراثي والشوقيات وقصائده التي لا تبدأ بمقدمات.
- الزمخشري هو الشاعر العالم الذي يسلك أحسن طريق في إنشاد قصائده وهو يحاول دوما التوسط بين القديم والجديد ويقف بين تيارين أو دافعين يتنازعان كي لا تضره لومة الناقد.

المصادر والمراجع

- ابن خلكان. (لاتا). وفيات الأعيان. تحقيق إحسان عباس. لبنان: دارالثقافة.
- ابن الأثير. (لاتا). الكامل في التاريخ. ج ١٠. المطبعة الأميرية.
- ابن قتيبة. (١٩٦٦م). الشعر والشعراء. تحقيق احمد محمد شاکر. ج ١. مصر: دارالمعارف.
- ابو الفداء. (١٢٨٦ق). المختصر في أخبار البشر. ج ٣. القسطنطينية: لانا.
- الأخطل. (لاتا). ديوان شعر. ط ٢. بيروت: دار الشرق.
- بدوي، أحمد أحمد. (١٩٥٢م). أسس النقد الأدبي الحديث. ط ١. لامك: مكتبة النهضة.
- المجاط، ابو عثمان عمرو بن بحر. (١٩٣٢م). البيان و التبيين. تحقيق عبدالسلام هارون. ط ٢. مصر: لانا.
- الحموي، ابن حجة. (١٣٠٤ق). خزائن الأدب وغاية الأرب. مصر: المطبعة الخيرية.
- الحموي، ياقوت. (١٩٩٣م). معجم الأدباء. تحقيق إحسان عباس. ط ١. ج ١٤. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الحوفي، أحمد محمد. (١٩٦٦م). الزمخشري. ط ١. لامك: دار الفكر العربي.
- _____ . (١٩٧٢م). الإسلام في شعر شوقي. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- دودبوتا، عمر محمد. (١٣٨٢ق). تأثير شعر عربي برتكامل شعر فارسي. ترجمه سيروس شميسا. تهران: نشرصداى معاصر.

- الذهبي. (١٩٩٣م). سير أعلام النبلاء. تحقيق بشار محمود عوام ومحبي الدين هلال السرحان. ط ٩. ج ٢٠. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- الزركلي، خير الدين. (١٩٨٠م). الأعلام. ط ٥. ج ٨. بيروت: دار العلم للملايين.
- الزحشري، محمود بن عمر. (١٣٢٥ق). مقامات الزحشري. ط ٢. مصر: لانا.
- _____ . (٢٠٠٤م). ديوان الزحشري. تحقيق الدكتور عبد الستار ضيف. ط ١. مؤسسة المختار. مصر: القاهرة.
- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن. (لاتا). طبقات المفسرين. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ضيف، عبد الستار. (١٩٩٤م). جلال الله محمود بن عمر الزحشري حياته و شعره. ط ١. القاهرة: عالم الكتب.
- عبد عمرو، على عبدالله. (١٩٧٩م). تحقيق ديوان الزحشري. مدينة نصر: مكتبة النصر للآلات الكاتبة.
- العسكري، أبو الهلال. (١٩٥٢م). كتاب الصناعتين. تحقيق على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. ط ١. لامك: دار إحياء الكتاب العربي.
- عطوان، حسين. (١٩٦٦م). مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول. ج ١. مصر: دار المعارف.
- كبرى زاده، طاش. (لاتا). مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. تحقيق أحمد بن مصطفى. ج ٢. القاهرة: دار الكتب الحديثة.
- ماحوزي، مهدي. (١٣٧٢ش). برگزيده نظم و نثر فارسي. ط ٥. طهران: أساطير.
- همايي، جلال الدين. (١٣٨٩ش). فنون بلاغت و صناعات ادبي. طهران: أهورا.